أعطني قبرًا

قصة بقلم محمد رؤوف بشير

كانت الاشياء ما تزال تتساقط حول المساعد ، قطع خشب ، صفائح من التوتياء ، قماش الخيش الممزق ، محدثة بداخله جلبة وضوضاء ، وغبارا يتصاعد من البناء المتهاوي ومن ضميره على حد سواء .

وتساءل ما اذا كان الامر يختلف لو انه ولد في فلسطين واضحى لاجئا بعيدا عن مسقط رأسه .

رفع سماعة الهاتف وكاد يبدأ المكالمة بالجملة المعهودة :

« ـ برقية ... القينا القبض ... ـ »

اعاد السماعة الى مكانها .

« ـ الهاتف لا يعمل ، لا بد ان الاسلاك قد قطعت ايضا ... »

جمد الدم في عروقه ، اخذ يلعن حظه الذي بدأ متعثرا مع اطلالة رتبته الجديدة .

« ـ الشرطي احمد اختارت زوجه هذه الليلة المباركة لتضع مولودها الاول ، واحشاء العريف طاهر دخلت في عراك كبير مع بعضها البعض مما جعل زعيقه يسبق عربة الاسعاف وهي تنقله الى المستشفى، اما هو فقد بقي وحيدا في هذا المخفر الذي دفعته اليه هذه الرتبة لتجعل منه رئيسا عليه ، وأي مخفر افضل لتدريبه من مخيم اللاجئين ؟.. وها هو الآن يفرق في هذه المعضلة الكبيرة التي لا يستطيع قائد الشرطة نفسه حلها .

وكاد لسانه ينطلق ببعض العبارات يقذف بها اللاجئين جميعا لانهم ينقلون معهم المصائب اينما حلوا ليصبوها على رأس الحكومة ، والشعب ، بل على مستقبله ، وضميره الذي اخذ يتحرك لاول مرة بطريقة مخالفة فيطفي على وعيه ويكاد يشله عن تطبيق القانون بحزم .

التفت الى المخفر ينظر اليه بعين واحدة ، تاركا الاخرى مغمضة تستحضر بقية الصورة كحلم مشوش لتكمل بقية البناء ، وبدا له ان فنانا كبيرا قد استطاع في لحظة الهام عبقرية ان يجعله متناسقا كليا مع المخيم دون ان ينسى مكانه في تلك اللوحة الرائعة .

وتراءى له المخفر منتصبا فوق الارض العارية ، بين الخيام المهترئة ، حدثا فنيا في الهندسة ، فقد كان بوسع الناظر اليه ان يعتبره قطعة واحدة ، او قطعتين ، وربما ثلاث قطع ، حسب مشيئته ، اذ لم يكن العهد بين تسميته الجديدة وبين اصله الحقيقي قد انقطع ، فالى زمن قريب كان صندوقين كبيرين من الخشب ، من تلك التي يجري استيراد الآلات الضخمة فيها ، كل واحد منهما بحجم غرفة صغيرة ، وقد ربط هذين الصندوقين الى بعضهما البعض بوساطة اسلاك وعوارض خشبية دقت فيها مسامير مختلفة ثم جرى تثبيتهما في الارض باوتاد واسياخ دعمت بأربعة احجار في الزوايا .

ولكي يتحقق من الصندوقين الاستعمال المريح الكامل لما اعد له فقد جعل لهما ثلاث فتحات ، اثنتان منها كوى صغيرة بقضبان حديدية، تنحرف الى جانب احداها فتحة كبيرة هي الباب الخارجي .

ولم ينس المهندس الفذ ... بابا داخليا يسمح بالمرور ضمن الصندوقين بحرية ويمكن قفله عند اللزوم فيحقق بذلك انفصالهما او اتحادهما وفقا للحاجة .

وفي الداخل حيث يتربع سرير حديدي ضيق ، وطاولة خشبية وكرسي كان لا بد من تزيينات اضافية تفرق بين صندوق وآخر ، فغطيت جوانب احدهما بقطع من الخيش والشمع الرخيص ووضع فوق السقف الواح قلقة من التوتياء تتحرك ابدا كلما داعبتها الريح او تساقطت فوقها حبات المطر فتحدث طنينا غريبا .

كان الصندوق الاول يمثل غرفة العمل ، والثاني سجن المخيم ، ولم يشأ ان يستحضر باقي التفاصيل باستثناء خيال العلم وهو يرفرف حزينا على قاعدته في مقدمة البناء .

وشعر وكأنه نازح هو الآخر مع مخفره في هذه الارض القفراء ، خارج حدود العمران والوجود الانساني باسره .

فهو هنا لكي يتدرب على ان يصبح اهلا لرئاسة مخفر في حي راق ، وهؤلاء اللاجئون عليهم ان يتقنوا فن حياة الخيام ،والتشرد في البراري ، الحكومات المحلية تصر على بقائهم منعزلين بعيدين عن اية امكانية دمج لاسباب سياسية ، ومؤسسة غوث اللاجئين تريد ان تساعدهم على نسيان الوطن بامكانياتها التافهة ، وهم قد فقدوا القدرة على الاستيطان ، والنسيان او العودة الى ديارهم على حد سواء، وهكذا كتب عليهم ان يعيشوا بعيدا عن كل احساس بالارض ، او الزمن ، او وجودهم كبشر الا من خلال بعض المظاهر الانعكاسية والشعور الغيبي باشياء اقرب ما تكون الى الاحلام فلم يختلفوا بذلك عن المعتقلين في شيء .

وتمنى لو ان امرا كقرار بالعفو ، او اخلاء السبيل يصدر بحق هؤلاء المساجين الابرياء ، فيريحهم ويستريح .

كان الى دقائق خلت شبه سعيد ، لم تكن جميع هذه الافكار قد طفت على سطح ضميره الغافي ، ووعيه المتبلد ، فقد كان يتناول طعام الفطور في صباح ذلك اليوم الباكر عندما تناهى الى سمعه صوت حارس المخيم وهو يسوق اليه رجلا طاعنا في السن ويصرخ فيه :

ـ سر يا « ابو حامد » ... ، امش امامي ... ، بالله عليك كيف فعلت ذلك ؟..

وخطر للرئيس السعيد كل شيء ، الا ان يكون هذا الشيخ قد قام بعمل ذي بال ، فالقى بحركة آلية مفتاح غرفة السجن الى الحارس وطلب اليه ان يضعه فيها ليقوم بالتحقيق فور انتهاء لقيمات الفول التي كان يزدردها فكها متلمظا بحبانها ، دون ان يعير اهتمامه لقول الحارس وهو ينطلق مسرعا .

ـ ساعود ... حالا ...

وصحا المساعد على اصوات جلبة وضوضاء ترتفع حوله مع آخر لقمة القاها في فمه ، مد بصره واذنيه من بين قضبان النافذة يستطلع الخبر ليجد جمعا غفيرا من اللاجئين ، رجالا ونساء واطفالا وهم يهرعون الى المخفر من كل حدب وصوب يحيطون به وعبارات شتى تنهال من افواههم :

ـ مسكين « ابو حامد » ...

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ...

ـ انا لله وانا اليه راجعون ...

ـ لا شك ان الرجل جن .. او خرف .. انه على حافة قبره ... والـ .

والتفت شاب نحيل يسال جاره :

ـ ماذا فعل « ابو حامد » ؟..

ـ قتل ابنته ...

ـ اية ابنة ؟.. اتلك الصغيرة التي يقارب عمرها العاشرة ؟

ـ اجل تلك ... فليس لديه سواها ...

ـ اعوذ بالله ... ولماذا قتلها ؟...

ـ لا احد يدري حتى الآن ...

واحس رئيس المخفر وكان شيئا قاسيا قد ارتطم براسه ، تراجع الى الوراء ، مر بصعوبة من خلال فتحة الباب الخارجية واصبح بين الجموع المحتشدة فاخذ يصرخ ويهدد باعلى صوته وهو يحاول ان يبعدهم عن جدار السجن الخشبي ، واستطاع بعد جهد كبير ان يصل الى وسط الجماهير ، حيث ضاع ، كما ضاع صوته ، ولم يعد بمقدوره ان يتحرك قيد انملة ، وكانه سقط بين فكي تمساح .

اللاجئون الذين وصلوا الى المخفر مبكرين التصقوا بالجدران تحت ضغط من جاؤوا بعدهم ، واولئك الذين اصبحوا في الوسط مع رئيس المخفر لم يعد بامكانهم ان يتقدموا اكثر كما كان يستحيل عليهم ان يتراجعوا الى الخلف حيث يتزايد كل لحظة اقبال المستطلعين فاذا بهم يشكلون مع المخفر كتلة واحدة متموجة تنذر اية حركة اضافية بكارثة محققة .

ويبدو وكان الجميع قد ادركوا هذه الحقيقة ، فخفت الحركة ، وخفتت الاصوات ، وقد قنع كل من الموجودين بمكانه لا يريم حراكا .

ولم يطل بهم الوقوف عندما برز من خلف قضبان السجن ، وجه كهل ملتح اشيب ، غضنته السنون وتهدل حاجباه فلم يعد يظهر منه سوى انف كبير وعينين صغيرتين خافتتين ، وقد بدا عليه مزيج من الاعياء والراحة اللذين يتخلفان عادة بعد قيام المرء بواجب هام القى على عاتقه فاداه على احسن صورة واكمل وجه وجاء ينتظر ثناء او موافقة رضية .

تفرس فيه المساعد مليا .

« ـ انه لا يحمل وجه مجرم » .

قال في نفسه .

رفع شاب طويل القامة راسه صائحا :

ـ لماذا قتلت ابنتك يا « ابو حامد » ؟..

وران على اللاجئين سكوت مهيب ، وبدا الشيخ بوجهه الوقور وكانه لم يسمع السؤال ، او ان السؤال لا يستحق الجواب لبدهيته وسذاجته .

اعاد الشاب القول ، تململ الراس قليلا .. ، وانفرجت شفتا الرجل الكهل ثم عادتا الى اطباقهما وكانه يفكر ماذا عليه ان يجيب...، احقا لا يعرف احد من هؤلاء سبب قتل ابنته ؟.. الم يدر في خلد واحد منهم شيء مماثل لفعلته ... كان يقتل نفسه .. او احد افراد اسرته او جميعها .. او مسؤولا امطرهم بوابل كلماته ووعوده اكثر مما قذفه على العدو من نيران ورصاص ؟

ماذا عليه ان يجيب هؤلاء الاغبياء ؟ كان الصراع بداخله قويا ، مختلف الموج والغور والمصدر .. ان عليه ان يخدر جرح الابوة في كبده المطعونة .. وان يفلسف هنا لحكامه بعبارات هادئة قضية واضحة كمخالفة سائق امام محكمة السير .

وعاد السؤال ملحا يرتفع حوله من كل جانب كاعمدة الخيام ، حسنا سيتكلم .. ليقلها ويستريح :

ـ قتلتها لانني اريد ان اعود الى قريتي لاموت فيها .. ولانها كانت جائعة ...

ـ ابسبب ذلك قتلتها ؟.. لماذا لم تطلب مني شيئا ؟.. لماذا لم تسال الجيران ؟..

كلنا سيساعدك على اطعامها ...

قال الشاب الطويل متحمسا .

وانفرجت شفتا الشيخ عن ابتسامة الم وسخرية .. اغلق فمه : « انهم كمهده بهم ، لم يتغيروا .. لم يتعلموا شيئا .. تحركهم عواطفهم ... يتعلقون بالقشة الصغيرة وينسون الاوتاد المغروسة في نحورهم ، هل تعبر وجوههم الصفراء وبطونهم الملتصقة بظهورهم عن الشبع ؟... الديهم ما يكفيهم من طعام ؟.. ايخبرهم انها جائعة ... طوال شهرين وهي توقظه في الليل وتبكي لانها جائعة ... مطاليبها اضحت كثيرة مرهقة ... كانت تنمو هي والجوع بسرعة عجيبة ... حتى الجائعات يكبرن الى ان يلتهمهن الجوع دفعة واحدة ليتركهن كقطع المومياء الكبيرة .. لقد توفيت امها يوم حرب حزيران .. يوم النزوح .. وحامد ابنه انقطعت اخباره ... وهو ماذا بقي منه ، لمن يتركها بعده ؟.. لماذا ؟.. لتعمل خادمة ، او لتبيع نفسها قطعة قطعة مع كل ورقة « نصيب » ..؟ ..

وامتد راس مدور من بين كتفين عريضتين .. القى جملة غير مفهومة :

« ما بال الجميع قد اصبحوا فصحاء .. هذه البلاغة قتلتنا .. اما الافعال فنادرة ركيكة .. لقد اصبح لاجئا قبل الخمسين .. ثم نازحا بعد حزيران ... ومن يدري فقد تلصق به تسمية جديدة ، حسنا فعل ... وهو مرتاح البال والضمير ... »

وعاد الى وجه الكهل ذلك المزيج الغريب من الاعياء الهادىء بعد ان استقرت العواطف والافكار المتصارعة بين حافتي جرح الابوة توقف قطرات الحنان النازف .

ساد الصمت من جديد ... لتعقبه همهمات الكلمات القلقة الغامضة ، طغى عليها فجاة صوت قوي حاد .

ـ نحن هنا يا « ابو حامد » ... لقد تغير الزمن ... الم تسمع بكتائب الفدائيين ... البنات ايضا اصبحن فدائيات يقاتلن مثل الرجال ..

واشرق الوجه الحزين كتمثال قديم .. كشاهدة في مقبرة سقطت عليها اشعة الشمس تبتسم .. تروي قصة انسان دفن تحتها راضيا مطمئنا .. واختلطت بوادر الفرح الطفولي بمظاهر خوف قلق تفتح الفم الصامت المغلق تجره الى الكلام رغما عنه :

ـ سمعت ... لكنني اخشى ... قلبي عليهم ... ما زالوا قلة ... متفرقين .. مختلفين .. في الصفوف الاولية لمدرسة النكبة ... بعض الحكومات تمنع عنهم حتى حرية الموت الشريف .. يحاربهم الاستعمار ... عليهم ان يقفوا على الاعداء في كل مكان ... قد يطول الوقت ... وانا على حافة قبري ... يجب ان اعود الى قريتي ..

ـ انك ضعيف ... مسن ... انسان اعزل ... وجنود الاعداء مسلحون .. سوف يقتلونك قبل ان تصل ...

ثارت ثائرة الشيخ ، تفجرت في جسده الهزيل طاقة هائلة فاخذ يزمجر وهو يهز قضبان السجن بكلتا يديه :

ـ انني حقا طاعن في السن .. ولكن ما تزال بي بقية من قوة ... اعرف طريق قريتي جيدا .. ومعي عصاي . ان ضربة منها كفيلة بقتل واحد من الاعداء ستقول ان العصا لا تقتل احدا ... حسنا وكذلك البارودة لا تقتل احدا .. والمدفع ايضا .. ان مشكلتنا هي اننا لم نعرف ابدا كيف نموت بصدق .. نحن اكثر من بذر البقلة المنثورة على الارض الواسعة .. ومع ذلك لم نفم حتى الآن بعمل حقيقي ومفيد ..

ولم يكد الشيخ ينهي كلماته حتى انطلق صوت رئيس المخفر مختنقا ضعيفا :

ـ القانون ... هو القانون .. تستطيع ان تقول ما تريد ... وان تموت حيثما شئت وكيفما اردت .. اما ان تقتل ابنتك فهذه مسألة اخرى ... سيكون لك شأن مع الحكومة .. وهي لن ترحمك ابدا ...

وعادت الابتسامة الساخرة تطوف بالوجه الهرم :

« ـ اجل .. ما اعدل القانون واسهل تطبيقه عندما يكون المرء لاجئا فقيرا » .

ثم اخذ يتحدث بصوت خافت كمن يكلم نفسه :

ـ لست ادري ... انني لا اريد ان اموت هنا ... اريد ان اذهب الى قريتي .. قد يعيش المرء في اي مكان ولكنه لا يستطيع الا ان يموت على ارضه في مسقط رأسه .. لقد كانت ابنتي هي العائق الوحيد الذي يمنعني من تحقيق هذه الامنية ... كنت اخشى عليها اذا تركتها ... او اخذتها معي ..

وسقطت عبرات من عينيه الكئيبتين اخذت طريقها خلال التجاعيد العميقة الى لحيته البيضاء لتتجمع في نهايتها وتتساقط قطرة قطرة على حافة النافذة بين القضبان .

سرت في الجمع همهمة قوية ، وضاع صوت المساعد وهو يأمر اللاجئين بأن يتفرقوا ، واحس بالضغط يزداد حتى كاد يحس بالاختناق، وبدا كل شيء حوله متموجا يتحرك في جهة واحدة هي بناء المخفر الذي اخذ يهتز فيسمع له صرير وازيز وهو يتداعى كلوحة على مسرح شعبي لتتساقط حوله قطع الخشب ، وصفائح التوتياء ، محدثة جلبة وضوضاء وكأنها تهوى بداخله مثيرة غبارا استقر على وعيه منذ عهد بعيد .

هدأت الاصوات ... تفرق اللاجئون .. ابتعدوا ... وكأنهم استيقظوا من كابوس ثقيل .

اخذ الرئيس يتلفت حوله باحثا عن بقايا المخفر .. وعن ابي حامد وقد صحا فيه ضمير الشرطي بعد ان غرق في هذه المأساة وكأنه يواجهها لاول مرة .

وهاله الامر :

« ـ الهانف لا يعمل .. اسلاكه مقطوعة .. وابو حامد ليس له اثر ، وكأن الارض قد ابتلعته ... »

ووقف فترة مذهولا ، لا يبدي حراكا وكأن قوتين متضاربتين تجذبانه في اتجاهات مختلفة .

« ـ لقد هربه زملاؤه ... بعد قليل سوف يعم الخبر كل مكان.. وهات يا رئيس المخفر العتيد سين وجيم .. طارت الرتبة الجديدة .. وضاع المستقبل .. ولم يكمل مدة التقاعد .. »

وفكر :

« ـ ماذا لو كان فلسطينيا ، اكان الامر يختلف ؟ اكان يساعد هو الاخر هذا الشيخ على الهرب ليموت هناك على تربة وطنه .. ويحقق له حلما بأن يقتل عدوا بضربة عصا ثم يرتاح .. ابنته الوحيدة ماتت واستراحت هي الاخرى ، وان عليه هو ان يواجه الآن موقفه مع رؤسائه » .

وصحا من افكاره على صوت الحارس وهو يقول :

ـ آسف يا سيدي ... لم استطع ان احضر اليك جثة المغدورة بسبب الزحام فاعدتها الى الخيمة .. انها ميتة ...

هز برأسه علامة الموافقة وسار باتجاه الانقاض ، رفع سماعة الهاتف من الارض ، اعاد وصل الاسلاك المقطوعة عندما اقترب منه الشاب ذو القامة المديدة وهو معفر بالتراب يقول :

ـ مات ابو حامد .. دفن تحت لوح خشبي سقط فوق رأسه..

اشار الى مكان وجود الجثة .. اقترب المساعد منها فأبعد القطع الخشبية ... وصفيحة من التوتياء ... تأمل وجه الشيخ . كان لا يزال يحمل ذلك الاعياء المريح لجهد صادق بذله انسان مخلص فجاء ينتظر الثناء او موافقة رضية .

ولم يشعر كما كان يتوقع بالراحة ، لقد انتهت ازمته تجاه عمله ورؤسائه ، لكن شيئا آخر استيقظ في روحه : ازمة الضمير وهي تواجه مأساة اللجوء الرهيبة ، ففمرته موجة من الكآبة والاسى وطافت بعينيه الدموع وهو يقول :

ـ برقية .. القينا القبض على القاتل ... جثته لدينا ، وكذلك جثة المغدورة .. يرجى الحضور او تفويضنا بالتحقيق ... » (*)

حلب — محمد رؤوف بشير

(*) من مجموعة «رحلة الخفاش» التي تصدر قريبا عن دار الآداب.

مجموعات البياتي

صدر عن دار الآداب المجموعات التالية للشاعر عبد الوهاب البياتي :

	ق. ل.
سفر الفقر والثورة	٢٥٠
الذي يأتي ولا يأتي	٢٠٠
اباريق مهشمة	٢٠٠
الموت في الحياة	٢٥٠
كلمات لا تموت	٢٠٠
كلمات على الطين	٢٠٠
النار والكلمات	٢٠٠